المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد13 حزيران 2024
No.13 June 2024

صورة المرأة في غزل مجنون ليلى

أ.د. عباس محمد رضا
كلية الفقه / جامعة الأمين

المستخلص:

لا شك في أن الخيال أساس الفنون، و الشعر فن الصوت و الإيقاع، يتوسل بالصورة التي عمادها الخيال ليرسم بالكلمات ما يبغيه و هنا يسعى المجنون لرسم ملامح من صورة ليلى بوساطة الخيال المحض ليعلو و ينخفض في استعماله بنسب مختلفة حسب مزاجه، فيظهر بريق إشعاعه خافتاً مرة أو لامعاً براقاً مرة و في كل حال يجذب المتلقي لساحته. لقد صال المجنون و جال بخياله فلم يدع لفظاً مما له علاقة بالخيال من قريب أو بعيد إلا جاء به في وصف حاله مع ليلى ليرسم صورتها هي و صورته هو من طريق ذاك الخيال الذي قيد نفسه بقيود حبها فلم يغادرها إلى غيرها. لكنما صورتها و تأثيرها فيه تذبذبت و تفاوتت بين مد و جزر على وفق حالته النفسية التي تبعها و تلاها جنوح خياله كماً و كيفاً. الشيء الواقعي الوحيد الذي تركه لنا هو شعره الذي أنشأه من خياله الخصيب و أنشده من حضرة ذلكم الخيال. و قد صدق حين قال ملخصاً بواعث ديوانه الغزلي:

إذا ما قرضت الشعر في غير ذكرها أبى –و أبيكم- أن يطاوعني شعري.(*)

كلمات مفتاحية : صورة المرأة ، غزل ، مجنون ليلى

The image of the woman in Majnun Layla's ghazal

Prof. Dr. Abbas Muhammad Reda
College of Jurisprudence/Al-Amin University

Abstract:

Majnun continued and roamed with his imagination, and he did not leave a word related to imagination, whether close or distant, except that he used it in describing his situation with Laila, to draw her image and his image through the path of that imagination that bound itself with the chains of her love and did not leave her for anything else. But its image and its effect on him fluctuated and varied between ebbs and flows according to his psychological state, which was followed by a wandering of his imagination in quantity and quality .The only realistic thing he left to us was his poetry, which he created from his fertile imagination and recited in the presence of that imagination. He was right when he said, summarizing the motives of his poetry collection:

If I recite poetry without mentioning it, my father - and your father - refuse to let my poetry obey me.

Keywords: image of a woman, flirtation, Majnun Laila

يسعى البحث لالتقاط جزئيات من ملامح ليلى و من ثم لم شتاتها و تجميعها في إطار موحد[1] عند المجنون كما رسمها خياله هو، لا نحن، من طريق تأثيرها في نفسه أي انعكاسها على ذاته العاشقة الوالهة، فليس ثمة صورة من أجل الصورة، و إنما من أجل التأثر و التأثير، و قد أنجز ذلك.[2] بما استعمله من ألفاظ تدل على الخيال و ما إليه.

الصورة نتاج الخيال و الخيال منبع الصورة[3] و لما كان الأمر كذلك فحسبنا أن نسترشد بما استعمله من ألفاظ تدل على الخيال حصراً و ما إليه من حقله الدلالي[4] انفتاحاً و يستظل بإيحاءاته.

لا علاقة لنا كثيراً هنا بالحقيقة و المجاز في رسم الصورة[5] لنا علاقة كثيرة بـ(الرسم قوامه الكلمات)[6] بالمجاز الكلي الموازي لحالته، لأن المجنون اعتمد على ذلك في نتاجه الليلوي.

فقد استعمل من المواد غير الخيال مرادفاته من مثل الصورة و الوهم و الجنون و الوسوسة و المس و الطيف و الحلم و الرشد و الوصف و الحدس و الخلد و الغشاوة و الزعم و الخاطر و الأمنية و حديث النفس و غيرها. و كل مفردة تصب في بعض و تجر معاني هي من صميم ما يؤدي إلى اشتغال ما أنتج.[7]

و معنى ذلك اشتراك أكثر من لفظة من هذه، تصِّور الخيالَ في بيت أو نتفة أو قطعة أو قصيدة، و ذاك دليل على صحة و صواب التوجه الخيالي لدى الشاعر في رسم صورة ليلى يتبعه صواب توجهنا للحاظها.

مثال ذلك:

و أخرج من بين البيوت لعلنـــي أحدّث عنك النفس في السر خاليا

و إني لأستغشي و ما بي نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليـــا[8]

لقد اجتمع في البيت الأول: حديث النفس و السر و الخلوة (فحديث النفس) لسان الخيال لا يبوح إلا في السر و الخلوة، (في السر) ما يبوح به لنفسه و يخفيه عن الآخرين من ضروب الخيال. و الخلوة تعين على السر و حديث النفس اللذين يساعدان على انطلاق الخيال و جنوحه. و هكذا تترابط المفردات و تتشابك لتؤدي أمراً واحداً بكتلة واحدة.

و في البيت الثاني: اجتمع غشاوة و نعسة و خيال الذي هو صميم موضوع بحثنا و لبه و لحمته و سداه.

دوافع البحث:

استقرت صورة المرأة في شعر الغزل العفيف على نمط واحد يتكرر في المصادر قديماً و يعاد في الدراسات الحديثة. على انها ذات جمال مثالي و ان الشاعر يتبع ظلها الرائن دائماً.[9] من دون انقطاع أو كلل أو ملل.

كان ذلك من طريق روايات ينقل بعضها عن بعض و اختارت لذلك مصاديق من أبيات، فوقعت في وهدة الوهم أحياناً، إذ نسبت كثيراً من شعر هذا الشاعر لذاك، و من ذاك لهذا، فضلاً عن أبيات للشاعر نفسه في الديوان الواحد[10]، و منها ديوان المجنون، من غير تمحيص للنصوص أو اعتماد عليها.[11]

و لكي تقتنع بحسن نية البحث في تبني الخيال أساساً لصناعة شعر الحب لابد لنا أن نأتي بما يطمئننا على أنه الخيال الواسع المتحرّك المتجدّد المحلّق المختلف المفتعِل، بأمثلة لنا و لغيرنا قديماً و حديثاً.

يقول شاعر عباسي: عتب ما للخيال خبريني و مالي[12]

و يقول شاعر حديث: يا وردة في خيالي جنت عليها الليالي[13]

و آخر يقول: كان صرحاً من خيال فهوى[14] و يقول الباحث الفقير إلى الله في محبوبة مفترضة محاولاً استعادة صورتها المرسومة في خياله:

..... ملامحها تعز على خيالي [15]

و أقول: يا آنية خالية ملأى في وهم الظمآن[16] كلها في الخيال و مضماره.

عندذاك أدركت أن ذهابي إلى تقمص خيال المجنون أمر فيه شيء من الصواب.

رائد البحث:

رائد البحث دليله، ينظرُ إلى العنوان فيهديه سبيله، و ذلك قول المجنون:

أصور صورة في الترب منها و أبكي إن قلبي في عذاب[17]

خيال مرسوم في التراب، و هو فن استحضار الغائب.

مفتاحه:

و عيشِكِ مالي حيلة غير أنني بلفظ الحصا و الخط في الأرض مولع[18]

و بعد ذلك:

أكلّم صورة في الترب منها....[19]

فتح لي باب الخيال عنده، و تكليم النفس: حديثه، فمضيت مؤيداً بقوله:

كأني عندها أشكو إليها فلا شخص يرد جواب قولي[20]

إذن فهو حديث نفس (أحدث نفسي) (أحدث عنك النفس) و بم يكون حديث النفس في غير المنى و كلاهما من بنات الخيال؟

و يستمر الأمر على انعدام جدواه حتى في خياله و تخيله:

أخط و أمحو كل ما قد خططته بدمعي و الغربان حولي وقّع[21]

كأنها راسخة في خياله تلوح له شبحاً فيرسمها و يمحوها ذاهلاً عما حوله.

امتناع عن زحزحة الصورة:

لم يستجب لتصوير أبيه إياها من حيث جمالها و أصلها:

يقول أبي يا قيس عندي خلافها و أكثر منها بهجة و نعيما

الحب أعمى، لا علاقة له بالجمال، يرى بعين قلبه:

ذي أمها كانت من الروم أصلها و قصدي أنا أصل يكون كريما

رضيت الذي قد عبت يا أبتي بها و دع أصلها بين النساء ذميما[22]

فأبى إلا أن يحافظ على رسم خياله، و رفض أن يفضل عليها غيرها.

..... محب لا يرى حسنا سواها.[23]

و قد صورها الواشون كما صورها أبوه فردهم بقوله إن ذلك لا يشينها:

و قد قيل نصرانية أم مالكٍ فقلت ذروني كل نفسٍ و دينها

فإن تكُ نصرانيةً أم مالكٍ فقد صورت في صورةٍ لا يشينها

و قد صوروها مرة أخرى بقصر قامتها:

يقول لي الواشون ليلى قصيرةٌ فليت ذراعاً عرض ليلى و طولها

و إن بعينيها –لعمركَ- شهلة فقلت كرام الطير شهل عيونها

و جاحظة فوهاء، لا بأس أنها منى كبدي بل كل نفس وسولها[24]

فاخترع خياله لكل عيب حسن تعليل.

فما سر ثبوت ملامح صورتها أمام هذا السيل من التصاوير المزحزحة؟! إنه الخيال العاشق، فتصويركم لصورتها لا يشينها فهي ليلى الجمال و ليلى المنى. أترى إدعاء أبيه و الواشين واقعاً وقع أم أنه تخيل رأيهم و قولهم فيها؟!

هاك لفظة (الخيال الصريح) و نعني بها خياله هو و خيالها الذي تخيله لصورتها. يؤيدنا في ذلك مادة (خال) بمعنى توهم[25] و القرآن الكريم في قوله تعالى (.. فإذا حبالهم و عيصهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)[26]:

أتاني خيال منك يا ليل زائر فكادت له نفسي الغداة تزول

خيالٌ لليلى زارني بعد هجرةٍ و رام عتابي و العتاب طويل[27]

لعمري أن هذا الخيال الذي زاره إنما هو طيف ألمّ. و لعلنا نجد رائحة حديث النفس في مثل هذا الطيف الزائر:

بربك أخبرني ألم تأثم التي أضر بجسمي من زمان خيالها[28]

و أراني أستشف من الخيال، خيال الليل و النهار، في الحلم و في اليقظة، و ذلك أدعى للتخيل:

إن التي طرق الرجال خيالها ما كنت زائرها و لا طراقها[29]

و أظنه يعني بالخيال (خيال يقظة) أو (أحلام يقظة) و ليس في النوم حسب، فلو كان في النوم لقال ما يدل على الليل (في المنام) مثلا، اذ لا نجد هنا اية إشارة الى (النوم _ الاحلام)، وقد يكون الطروق ليلا في هدأة الليل ووطأته ووحشته وظلمته ووحدته وغربته لكنه لا يعني انه في المنام.

فمرة يحلم / يتخيل في اليقظة نهاراً او ليلاً، ومرة يحلم أن يحلم بها في النوم ليلاً. أليس هو الذي يقول:

..... فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا[30]

و ثمة أبيات يسودها الخيال، و هي بين ليل و نهار تدل و لا تصرح:

عذيري من طيفٍ أتى بعد موهنٍ برامةَ حزوى عرفه يتقدم[31]

و أظن (الموهن) يمكن أن يكون أحلام يقظة أو يكون ليلاً. قال الأصمعي:

هو حين يدبر الليل أو نحو من نصف الليل.[32] إذن في الأمر سهرٌ و أرق.

أولاً هو طيف من خيال ثم إذا بعرفه يتقدم فيجتمع خيالان غير مرئيين. أحقاً كان طيفه بشراً مثل ليلى؟ ثم كان لذلك الطيف (الخيال) عرف؟ كيف يشم من الخيال عرف؟ فذاك هو الخيال المخيَّل المخيِّل.

لقد طرقتني أم خشفٍ و إنها إذا صرع القوم الكرى لطروق[33]

يعني البيت أن الناس نيام و هو يقظان يطرقه الخيال خيالها. أو أن الخيال طرقه في حال نام القوم و هو منهم، احتمالان ليس إلا.

لا يهمنا من الأمر شيء سواء أكان ليلاً أم نهاراً، إذا كان نهاراً فهو محض خيال و هو مطلبنا و إذا كان ليلاً فهو خيال مركب من خيال و من إرادة الخيال أن يتحقق في المنام و لكن هيهات.

و إذا اشتاق لها تراءت له في المنام حلماً أو تمنى رؤيتها أي أنه تخيلها صورة لا حقيقة:

تخبرني الأحلام إني أراكم فيا ليت أحلام المنام يقين[34]

قد يصح أن نقول أنها أحلام يقظته (غفوة، غمضة عين) تخطف خطفة خاطفة فيخيل الخيال خيالها. فمن قال أنه يحلم بصدق أو حلم صدقا؟ و يصدقنا قوله نفسه، حتى حلمه هو لكي يحلم من باب التخيل المحض. ربما يكون ذاك/ يحلم يتحقق (حلمه في أن يحلم) و إن كان حلمه في الحلم يضادد نومه لكي يحلم. إذن فهو خيال.[35] يؤكد ذاك كله قوله: (طروق الليل):

و لولا طروق الليل أودت بنفسه منعمة اللحظين تبري و تسقم[36]

و قد يخطف الطيف ليلاً خطفة عاجلة و لا يريم و لا يلبث:

قمرٌ نمَّ.....

رصد.....

ركب الأخطار في زورته ثم ما سلَّم حتى ودعا[37]

و كما استعمل الخيال هو صراحة استعمل الخيال لغيره (لهن):

تخيلن أن هبت لهن عشيةً جنوب و أن لاحت لهن بروق[38]

إذ تخيل أنهن تخيلن أن هبت جنوب و لاحت بروق.

و يكبر الخيال و يتسع في (الخلوة) -و لعلها من الخيال- ولاسيما عند المجنون الذي تخيل أن شفاء الحب فيما تخيل:

فقال شفاء الحب أن تلصق الحشا بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا[39]

و لا أدل على ما ذهبت إليه من قوله:

طرقتك بين مسبح و مكبر .....

..... و جبالها باتت بمسك تنفح[40]

يقول التعليق في مقدمة المقطوعة: (... فجعل يحدث نفسه كالذي في النوم و يعاتب امرأة حاضرة فحلف أن ليلى كانت بجانبه في هذا الوقت) و عبارة (كالذي في النوم) ترشدنا إلى أنه لم يكن في النوم قط.

في المعجم: طرق: أتى ليلاً، و ليس في النوم، فضلاً عن أنه يعني التكهن و هو الحديث للآخر بالغيب و هو قريبٌ من الخيال. و يمكن لحاظ الديوان 188 (عرفه يتقدم) ظ الهامش 37، و البيت (بمسكٍ تنفح) على أنهما من تخيل الحواس و سكراتها في اليقظة.

و قد يتساوى الأمران عنده، النوم و اليقظة، في الحلم و في الوساوس، فلا يميز هذا من ذاك، خيال في خيال:

أفي النوم يا ليلى رأيتك أم أنا رأيتك يقظاناً فعندي شهودها

يعني أن لا شهود له في العيان. حتى يصل به الأمر إلى ان يقول:

ضممتك حتى قلت ناري قد انطفت فلم تطف نيراني و زيد وقودها[41]

تخيل محض، فأي ضم هذا؟ لو كان ثمة ضم ما كان ديوان شعره ملؤه غزل/ خيال.[42]

أليس مثل هذا غمضة عين و انسياب في عالم الخيال و يحار في الأمر أليل هو أم نهار؟ و خطرة من خطراته فتتراءى له شبحاً فتخيل أنه يضمها. أو ليس هذا من تصورات الخيال و ممارساتها و استسلامه لها؟

سنشير إلى بعض ما استعمله مما له علاقة بالخيال و سنرجئ بعضاً إلى بحثٍ قادم بإذن الله تعالى، مع توسُّع أكثر و تحليل أعمق.

من ذلك الأماني أو الأمنيات التي هي عماد الخيال و ينبوعه:

و أكثر شيء نلته من نوالها أمانيَّ لم تعلق، كبارقة البرق[43]

و منها الزعم إذ تخيل زعمها؛ لقلقه الدائب على الرغم من شدة حبه إياها، و ما ذاك إلا من اضطراب الخيال:

ألا زعمت ليلى بأن لا أحبها .....[44]

و منها الرشد إذ ينفيه عن نفسه؛ لأنه غارق في خيال:

..... و ما لفؤادي من رواح و لا رشد[45]

و منها الخلد إذ يعني به القلب و الخاطر، اللذين تماهيا في خياله:

..... و ما خلدي عن حب ليلى بتائب[46]

و منها التزيين و التصيير إذ يعني بهما رؤية الشيء على غير حقيقته، خيالاً مخيَّلاً:

فيا رب إذ صيرت ليلى هي المنى فزنّي بعينيها كما زنتها ليا[47]

و غيرها.

و كلٌ وطيد العلاقة قريب النسب من الخيال الذي كان وكدنا، و كما رأينا في ما سبق من القول.

و هكذا يعيش المجنون في عالم الخيال يطلق له العنان مع ليلى ليصورها كما أراد، فهي في خياله صورة راسخة لا تتزحزح مهما تقوَّل عليها الواشون أو أراد له أبوه من كونها قصيرةً أو نصرانيةً فيجابههم بحسن التعليل الذي تقتنع به نفسه.

فهو يحلم بأن يحلم بها لتعوضه عن الواقع المحروم، و هي تسد عليه منافذ فكره و تفتح له آفاق الخيال ليل نهار حتى أنها تراءت له ظهراً و ليلاً و ما الترائي إلا أن يرى بعضهما بعضاً، و أنّى له ذلك؟ و ديوانه كله بعدٌ و شكوى. و إذا كان (تراءى) يعني أن ينظر إلى وجهه في المرآة فيبدو أنه ينظر إلى وجهها المتخيَّل لا وجهه هو، فأبعِد به خيالاً! و ما أوسعه و انفتاحه و تحليقه في عوالم غريبة؟ و قد ذهب مع رؤيتها بعين قلبه لا بها مذاهب شتى من (الحسيَّة) من ضم و إلصاق حشا بحشا.

و قد تعاونت ألفاظ تدور في فلك الخيال استعملها للغاية نفسها من مثل الوسوسة و الجنون و حديث النفس و الغشاوة و تصويرها في التراب و تكليم تلك الصورة ثم محوها و هكذا إلى منتهى ديوانه.

التوثيق و التعريف

1. منهج اتخذته في دراساتي المتأخرة ظ مثلاً نصية الجبل في القرآن الكريم.
2. ظ نظرية الأدب 195 + النقد الأدبي الحديث 417.
3. فاعلية الخيال عند الفرطوسي (مقال) 140 في ضمن كتاب العلامة البصرية و البنى الرامزة.
4. الحقل الدلالي هو ما يدل على المعنى و ظلاله و إيحائه و ما حوله من هالة من مترادفات و مسميات.
5. ظ رسالتي للماجستير الصورة الشعرية عند النابغة الذبياني و مصادرها 9-36 و مصادري القديمة و الحديثة.
6. الصورة الشعرية/ سي دي لويس 20+21
7. الصفحات على سبيل المثال د/ 242 + 240 + 241 +238 + 237 + 236 + 234 + 230 + 228 +222 +225.
8. د/ 242
9. ظ الدراسات القديمة في مقدمة ديوانه + دراسات حديثة تطور الغزل 327-334.
10. في الديوان أكثر من مصدر لجمع شعره، ظ الهوامش في الديوان.
11. ظ وصف شعره بالافتعال و الركاكة ص235 من الديوان + ظ التعليق النقدي في مقدمات النصوص ص122 مثلاً + تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام/ 8-12.
12. شاعر عباسي.
13. يغنيه محمد عبد الوهاب و أظنه للأخطل الصغير بشارة الخوري.
14. أظنه لأحمد رامي، و تغنيه أم كلثوم.
15. و (16) من شعري المخطوط في السبعينيات و الثمانينيات.

17. د/ 60 + ظ 147.
18. د/ 147.
19. و (20) د/ 60.
21. د/ 148.
22. د/ 253.
23. د/ 222.
24. د/ 223.
25. مختار الصحاح/ مادة (خ ى ل) و ظ المنجد/ م ن.
26. سورة طه.
27. د/ 174.
28. د/ 177.
29. د/ 167.
30. د/ 132.
31. د/ 188.
32. مختار الصحاح/ مادة (و هـ ن).
33. د/ 164.
34. د/ 206.
35. د/ 75+86+129+231.
36. د/ 187.
37. د/ 158.
38. د/ 164.
39. د/ 237 و ظ مواضع أخرى 224 + 238 مثلاً.
40. د/ 75.
41. د/ 86.
42. تعبير مأخوذ من شعر للسياب.
43 و 44 و 45 و 46 و 47 على التوالي د/ 166 و 122 و 91 و 61 و 237.

مكتبة البحث

*القرآن الكريم.

- تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام/ د.شكري فيصل/ دار العلم للملايين/ ط5 بيروت.

- جدلية الخفاء و التجلي/ كمال أبو ديب/ دار العلم للملايين بيروت 179.

- ديوان مجنون ليلى/ جمع و تحقيق عبد الستار أحمد فراج/ دار مصر للطباعة (د.ت).

- شعري المخطوط.

- الصورة الشعرية/ سي دي لويس/ ت. أحمد نصيف الجنابي/ بغداد 182 و بيروت ط3 1983.

- الصورة الشعرية عند النابغة الذبياني/ رسالة ماجستير/ عباس محمد رضا/ كلية الآداب 1987.

- الصورة في الشعر العربي حتى آخر ق 2هـ / د. علي البطل.

- فاعلية الخيال 140 في ضمن كتاب العلامة البصرية/ أ.د. عباس محمد رضا/ دار تموز 2012.

- مختار الصحاح/ الرازي/ دار الكتاب العربي بيروت 1981.

- المنجد/ البستاني/ دار المشرق/ بيروت ط22.

- نصية الجبل في القرآن الكريم، أ.د.عباس محمد رضا، (بحث منشور في المجلة العراقية) (عدد خاص) شباط 2023/ عدد مشترك بين جامعة المصطفى الأمين و كلية أصول الدين.

- نظرية الأدب/ رينيه ويليك و آوستن وارن 195/ بيروت ط2/ 1981.

- النقد الأدبي الحديث/ محمد غنيمي هلال/ القاهرة (د.ت).